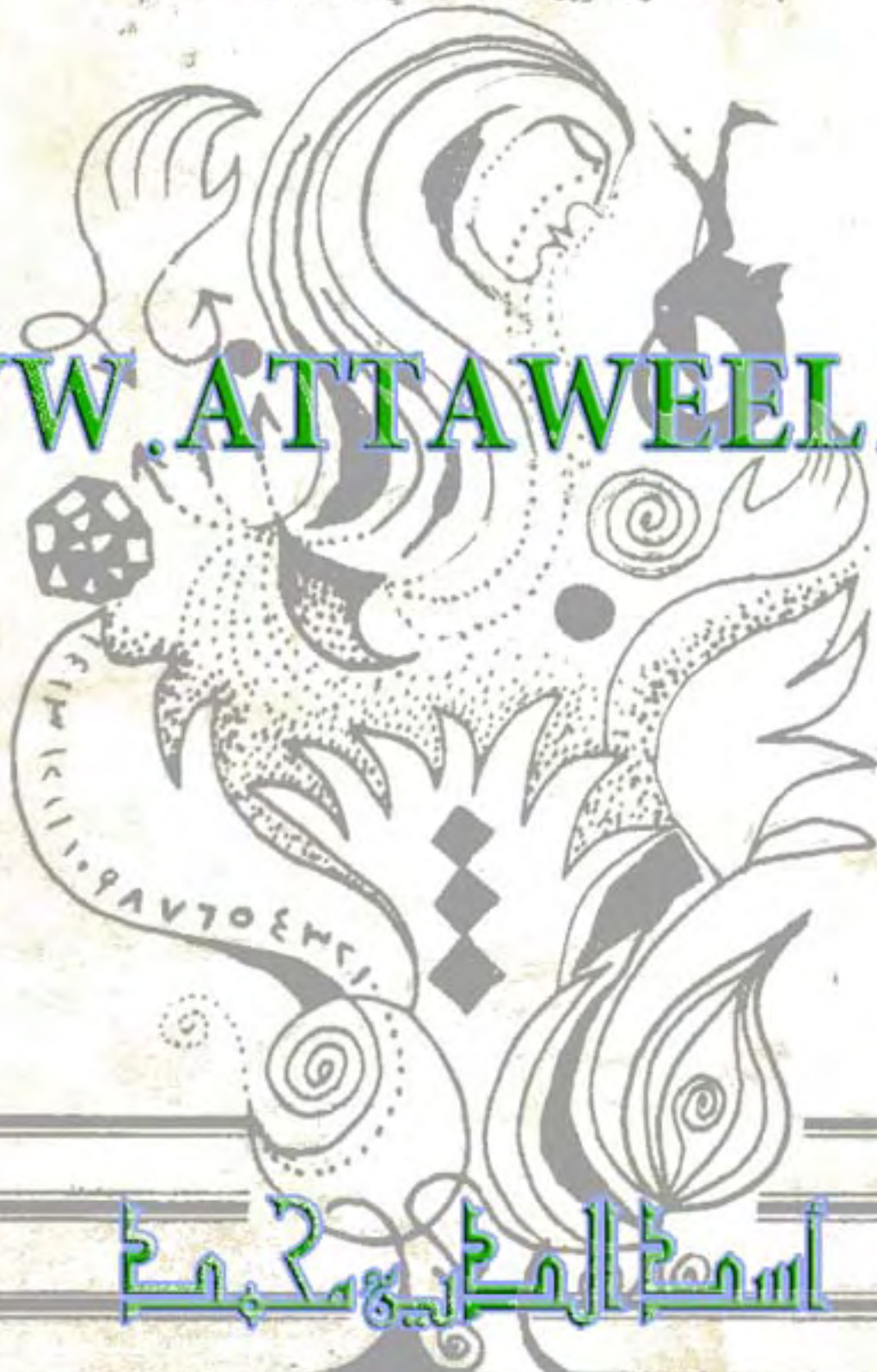


المجلة

قصة خمر
لنصار سبطاً وثقياً وخطيباً

مجلة تراثية نصف سنوية محكمة
المجلد الثالث والعشرون - العدد الثاني - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

WWW.ATTAWHEEL.COM



١٩٩٥

٢

أسرة المكية

تصدرها وزارة الثقافة والإعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - جمهورية العراق

الغذاء ايام المحن والحصار في التراث العربي

بقلم :

الباحث د . عماد محمد ذياب الحليظ

عضو اتحاد المؤرخين العرب

والباحث عادل محمد علي الشيخ حسين

عضو اتحاد المؤرخين العرب

المقدمة :

على البقاء والحياة هي الحبيب والتميز وحيواناتهم المستأنسة لضمان مآشهم .

فالغذاء يعتبر من أهم الاحتياجات في استمرارية الحياة إذ يأتي بعد الهواء والماء وهو حق أساس من حقوق الإنسان ، وأن عدم توفره يؤدي إلى المجاعات وعدم الاستقرار بكافة أنواعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي^(١) . ولذلك ظل العرب معروفين بكونهم شعب حضارة وربي على اختلاف المراحل الزمنية التي مروا بها ابتداء من إنسان ما قبل التاريخ حيث بداية الاستيطان وتجنين الحيوانات وتأسيس القرى الزراعية ووصولاً إلى قيام حضارات عربية بدأت من الحقبة السومرية البابلية فالاشورية وانتهاء بالحقبة العباسية حيث كانت أكبر إمبراطورية عربية إسلامية عرفها التاريخ وعاصمتها بغداد .

تطرقنا في بحثنا هذا إلى الغذاء وموره ايام المحن والحصار في التراث العربي ، وذلك بما توفر من مصادر ومراجع قديمة وما تيسر لنا من معلومات ، خاصة وأن هذا الموضوع يكاد أن نقول أن لم يكتب عنه الا الذر اليسير ومن الله التوفيق .

الغذاء وحضارات العرب القديمة .

لم تسعنا المصادر في التعرف على الغذاء الشائع لدى سكان بلاد الرافدين ووادي النيل وأصاط الطعام السائد لدى شعوب المنطقة خلال الحقبة السومرية والبابلية والاشورية والمصرية . وإنما تؤكد أن مصادر الغذاء في تلك الفترة كانت نباتية وحيوانية فلقد عرفوا أنواع مختلفة من الحبوب كالقمح والشعير والذرة والبقوليات فضلاً عن معرفتهم بصنع الخبز من هذه الحبوب فذاعت شهرة المرائيين في معرفتهم بطنون

أن النظرة الفاحصة في التراث العربي هي عملية للانتقاء والأبداع حصيلتها عملية نضوج مفاهيم علمية ما زال البعض تجهل عنها الكثير . ومن أهم هذه المفاهيم التي أدت إلى نشوء حضارات ما زال التاريخ الإنساني يفتخر بمفاهيم نموها وتطورها نحو الغذاء وكيفية تأمينه وتوفره لتلك الشعوب . وخاصة خلال الحضارات التي سادت في الوطن العربي الا وهي حضارة وادي الرافدين وحضارة وادي النيل .

لقد كان الغذاء هو العنصر الأساسي في بناء الحضارة ولتوفر الغذاء شعب . يجب أن تتوفر مصادر الغذاء الرئيسية وبنوعيتها النباتية والحيوانية^(٢) .

ولذلك نجد أن انحصار الغذاء ومصادره كان هو السبب الرئيسي في هجرة القبائل العربية قبل آلاف السنين والذي كان سببه حصول التقيير الكبير في طبيعة بلاد العرب وعلى وجه التحديد الجزيرة العربية . وهذا التقير هو السبب الأول والرئيسي في هجرة هذه الأقوام وانتشارها في أرض المعمورة ، وأن ما حصل على أطراف هذه الأرض وتصحرها كان له الدور الكبير في ذلك . أن المؤرخين لا ينكرون أثر التقير الاقليمي من الخصب إلى الجفاف في هذا التحول الخطير . وهذا ما أكدته موسكاتي^(٣) فقد قال : لو تتبعنا تاريخ الموجات البشرية التي انطلقت في هجرات تاريخية معروفة ببقين نحو ما نسميه الآن بالشرق العربي لوجدنا أن هذه الهجرات كانت دائماً وأبداً تنطلق من شبه الجزيرة العربية .

وكانت للعرب أثناء هجراتهم هذه الفضل وسيلة من الحفاظ

الزراعة وتربية المحاصيل الزراعية وتحسينها ، فوجد هيرودوتس (مؤرخ
الغريقي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) يتحدث عن عظمة
المحاصيل الزراعية في بلاد الرافدين ووزارة انتاجها وينبع منتجاتها .
ولقد عرف سكان بلاد الرافدين أيضاً الفاكهة والخضراوات فكانوا يأكلون
الزمن ويكثرون من أكله معتمدين ان الزمان يزيد من كمية الدم في جسم
الانسان . كما كانوا يكتسبون النخلة وعنها شجرة الحياة لان منها
مساكنهم وماكلهم وملبسهم ، فبلغ مجموع منتجات النخلة أيام البابليين
٣٦٥ فائدة اي ان فوائدها بعدد أيام السنة . لذلك نجد ان لها عياداً في
أيام البابليين والذي كان يعرف بمعد قطاف التمر^(١) . كما واعتبروا النخلة
هو الخزين الاستراتيجي لغذاء المجتمع وقد ترك ابن بابل اخباراً منقوشة
عن تدمير الاعداء لبساتين نجيل بابل عند الحروب والحصار . ويتضح
ذلك من خلال النقوش الآتية التي تصف جنود الاعداء وهم يقطعون
اشجار النخيل المثمرة بواسطة الفؤوس . ولاخيرة اذا عرفنا ان البابليين
تمكنوا من صناعة الخبز من لب النخيل (الحنطار) أيام المحن والحصار
تمريضاً لعامة الخبز التي تصنع من الحبوب والتي ينحسر انتاجها أيام
العدوان والحصار^(٢) .

اما عن اساليب اهل الرافدين في تحضير الطعام والغذاء وهل كانوا
يتبعون طرقاً صحيحة وصحية في تحضير الغذاء وحفظه فهنا ما لم
يكن معرفته من خلال المصادر المتوفرة لدينا ، باستثناء قصة يوسف
(ع) التي نذكرها للقرآن الكريم والتي جرت أحداثها أيام حكم فراعنة
مصر أي قبل عدة قرون من ميلاد نبي الله عيسى المسيح (ع) . فلتد
أوتي يوسف (ع) العقل والحكمة قبل النبوة فقد اجتبهه ربه وعلمه من
تأويل الاحاديث « وكذلك مكنا يوسف في الارض ولنعلمه من تأويل
الاحاديث »^(٣) . ولما بلغ اشدّه انتهاء حكماً وعلماً وكذلك نجزي
المحسنين^(٤) . يوسف ايها الصديق افتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن
سبع عجاف وسبع سبلات خضر وأخر بابسات^(٥) .

فجاء قوله تعالى على لسان يوسف :

« قال تزعمون سبع سنين راباً فما حصلت سنون في سبله الا قليلاً
مما تأكلون ، ثم يأتي بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قمتن لهن الا قليلاً
مما تحصلون ، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يفات الناس وفيه
يمصرون »^(٦) .

فاجاب النبي يوسف (ع) في تفسير الرؤيا ، بأن السبع بقرات
السمان والسبع سبلات الخضر هي سبع سنين من الخصب والنماء
وخير وغير . اما البقرات العجاف والسبلات اليابسات فهي سبع سنين
من الجنب والقمح لم يتكوا عام ينزل فيها المطر الغزير وينبت الزرع
وتعصر فيها الاعناب والزيت والزيتون فيكثر الغذاء والزيت وينمو الضرع
ليزيد عطاء الحليب^(٧) .

ولذلك اشار يوسف (ع) على حاكم مصر ان يجمع مصادر الغذاء
من الحبوب لزياة انتاجها خلال سنين النماء بالاضافة الى اشارته
ببناء الاهرام والمخازن لحزن الحبوب بسبله والطعام ليكون الحب
لغذاء الناس والقش والتبن لغذاء الحيوان فضلاً عن حزن الحبوب في
سبله سيحفظه من الفساد والتلف والتسوس وقد اثبت العلم ان هذا
الاسلوب في حزن الحبوب هو كليل في حفظها من الاصابات بالاعفان
والسوس وغيرها من حشرات الحبوب . وبذلك تمكن يوسف (ع) من
وضع خطة استراتيجية لتأمين الغذاء لشعب مصر وما جاورها من بلاد

العرب لمدة اربعة عشر عام وباسلوب عملي شامل ادى الى الحفاظ على
حياة الشعب خلال سنين المحن والجنب المجاف .

اي يمكن القول ان يوسف (ع) يمكن ان نعتبره المخطط الاول
للامن الغذائي في تاريخ البشرية ، وقد حفظ لنا القرآن الكريم هذه القصة
ذات الحكمة والعلم كي يتعلم منها العرب والمسلمين مايمكن ان يهيؤ
لايام القحط والحصار

والتي يمكن ان تلخصها بنقطتين :

- ١ - زيادة الانتاج الزراعي تحقيقاً للاكتفاء الذاتي .
- ٢ - توفير خزين استراتيجي يضمن استمرار الاستمرار والنمو
الحضاري .

ان اهمية الغذاء وسبل توفيره أيام المحن والحصار ظل متواتراً عبر
الاجيال في بلاد العرب وقد تجسد ذلك من خلال كتاب الفلاحة النبطية
لابن وحشية والذي تحدث فيه عن انواع الغذاء وسبل توفيرها والحفاظ
عليها عند ترجمته لكتاب بابني قنوم مكتوب بالنبطية عن غذاء اهل بابل
وكيف اعتمروا الزرع والذرع غذاء ودواء على اختلاف مراحل التطور
وشروف العدوان والحصار .

اي ان هذه المعرفة تنقلها العرب عبر اجيالهم حفظاً عن طهر قلب
او مكتوبة وتناقشها مضافاً خلال مراحل النمو العربي وحتى في
المرحلة التي سبقت ظهور الاسلام والتي سميت من قبل البعض بالفترة
الجاهلية .

الغذاء والحكمة العربية الاسلامية .

بعد نزول القرآن الكريم الذي اشار الى العديد من انواع
الغذاء من لحوم الماشية والاسماك والحبوب والخضراوات
والفاكهة والتي جاء ذكرها في العديد من السور والايات القرآنية
الكريمة فوجد ذكر العديد من الاشارات التي تتحدث عن طيبات
مازقناكم (اي الغذاء الجيد النافع والمفيد لصحة الانسان ونموه
من اصناف اللحوم والمزروعات وعسل النحل الذي فيه شفاء
للناس . كما حرم الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه السيء من
الطعام كالصينة والدم ولحم الخنزير والسريضة والنطيحة وغير ذلك
من سيء الغذاء الذي قد يضر بالانسان ويؤثر على صحته سلباً .
في هذه الفترة من الزمن والاسلام ما زال في مرحلة نشوء
الاولى نجد ان محمد (صلعم) واهله واصحابه يتعرضون لمرحلة
جديدة من مراحل الحصار في التاريخ العربي الا وهو حصار
المسلمين في شعب أبي طالب ، والذي حدث على اثر اتفاق كفار
قريش على صحيفة الحصار والتي جاء فيها :

« ان لايجالسوهم ، ولايخالطوهم ، ولايبارمهم ، وفي رواية
لايبايمونهم ولايتعاونونهم ، ولا يدخلوا بيوتهم ، وان لايقبلوا من
بني هاشم ابداً صلحاً ، ولا تأخذهم بهم رافة ولا رحمة ولا هوانة
حتى يسلموا رسول الله محمد (صلعم) للقتل ، والا يذاكحوهم
ولا ينكحوا اليهم ، ولا يدخلوا بيوتهم »^(٨)

ولقد اتخذ المشركون عدة اجراءات لانجاح حصارهم على

محمد (صلم) وقومه والتي تمتأت بالاعتداء على من اسلم . وضربهم في كل طريق وقطعوا عليهم الاسواق والغذاء . فكانوا لا يتركون طعاماً او بيماً الا بادروا اليه فيشترون الفلة ويمتصون بني هاشم عنها . ولم يدعوا احداً يدخل على شعب ابي طالب . ولم يصل الي محمد (صلم) وقومه شيئاً من الغذاء الا سراً او مستخفياً وسمعت اصوات صبية بني هاشم من وراء الشعب يتضاغون من الجوع وقد استمر هذا الحصار ثلاث سنوات الا انه باء بالفشل بفعل تكافل القيم وتعاطفهم وتعاونهم وصبرهم حتى جاءهم النصر من عند الله .

ولعل افضل غذاء تناوله محمد (صلم) وقومه في هذا الصحار التمر لما كان له من منزلة كبيرة . فقد قال رسول الله (صلم) : كلوا البلح بالتمر : فان الشيطان اذا نظر الى ابن ادم ياكل البلح بالتمر يقول . بقي ابن ادم حتى اكل الحديث بالعتيق^(١٢)

وللحديث النبوي الشريف هذا دلالة واضحة عن اهمية التمر كغذاء في الحفاظ على بني ادم واستمرار بقائهم من خلال ما يحققه التمر من غذاء على مدار السنة .

وكان صحابة رسول الله (صلم) ايام المحن يأتي كل واحد من اصحاب النخيل بقلو (اي علق) عند جذائه ثم يملقه على باب المسجد ياكل منه من يشاء^(١٣) . وهذه ممارسة تبين اهتمام العرب المسلمين في تقضاء على اية فجوة غذائية في المجتمع وهو ما يعرف اليوم بالتكافل الاجتماعي لحماية المجتمع من اخطار آفة عرفتها البشرية وهي آفة الجوع والحاجة .

كما وازج ابن قيم الجوزية اهمية نخلة التمر في توفير الغذاء وادها بمزلة محاصيل الحبوب في اهميتها عند العرب فقال^(١٤) : وهو من افضل الاغذية في البلاد الباردة والحرارة واما اهل المدينة فالتمر لهم يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم . وهر فونهم ومايتهم . وقال الطائي وربما قطعت الدخلة فاكل جمارها . او انهم يضمنون منه انواع مختلفة من المأكولات والخبز . فقل : وربما جثوا الجذع بعد ما يجد الجمار فيشتق ثم يضرب جوفه فيعطف كهيئة الباق . فلما اسدت الناس صنعوا منه عصيدة او خبزاً . ويسمى النهمة^(١٥) .

وان دل ذلك على شيء فانما يدل على مقدار المعرفة التي توصل اليها العرب في تأمين غذائهم ايام المحن والحصار وفي تطوير المحاصيل الزراعية كبداية للحبوب في صناعة الخبز . والذي يعتبر من الركائز الأساسية في استراتيجيات الامن الغذائي في وقتنا الحاضر .

وهكذا تمكن المهاجرين والانصار من مواجهة حصار الكفار بالتكافل حيث تقاسموا السكن والمأكول وأعان غنيهم فقيرهم فكان الفتح .

وفي حقب الحكم العربي الاسلامي اللاحقة نجد ان

المسلمين مؤلفات العرب ايام الفتوة العربية الاسلامية تحدثت عن اهمية الغذاء . ومن اول هؤلاء الذين تحدثوا في هذا المجال الحرث بن كلفة الثقفي ايام الرسول محمد (صلم) وغيره كثيرون فذكر هنا اهم من برع منهم ومؤلفاتهم التي كتبوها في مجال الغذاء والتغذية وصحة الانسان والفن عاشوا خلال القرون الخمسة الاولى من التاريخ الهجري . اي منذ حوالي الف عام وهم :

- ١ - جبرائيل بن بختيشوع وله رسالة الى الامامون في المطعم والمشرب .
- ٢ - سابور بن سهل وله كتاب قوى الاطعمة ومضارها ومنافعها .
- ٣ - يوحنا بن ماسويه وله كتاب في الاغذية وكتاب دفع مضار الاغذية .
- ٤ - حنين بن اسحق وله كتاب في طبائع الاغذية وتبوير الابدان .
- ٥ - عيسى بن ماسة وله كتاب قوى الاغذية .
- ٦ - يعقوب بن اسحق الكندي وله رسالة في تبوير الاطعمة .
- ٧ - ابن رين الطبري وله كتاب منافع الاطعمة والاشربة والمقايير .
- ٨ - ابو بكر الرازي وله كتاب منافع الاغذية وبفع مضارها .
- ٩ - ابو الحجاج يوسف وله رسالة في ترتيب الاغذية اللطيفة والكثيفة .
- ١٠ - سعيد الدين بن ربيعة وله كتاب الفرض المطلوب في تبوير المأكول والمشروب .

هؤلاء العلماء العرب هم بعض من كتب في اهمية الغذاء وغيرهم كثيرون اغلوا المكتبة العربية والانسانية بمؤلفاتهم . وبذلك اثبت العرب انهم اول من وضع اسس الغذاء والتغذية الصحيحة ونورها في حفظ صحة الانسان في مختلف الظروف سواء كانت لوقات رخاء او صحن وحصار .

وبذلك يكون العرب هم اول من اعتمد اسلوب التخطيط الاستراتيجي في مواجهة العنوان والحصار . واول شعب استخدم اسلوب التكافل الاجتماعي ايام المحن والحصار فاصبح له المسجد والنصر المبين عبر المراحل التاريخية المتعاقبة .

الهوامش والمصادر

- ١- الحليق، عماد محمد ذياب وحسين السعدي ١٩٩٣. البينة والفناء في ظل الملبوان والحضار على المراق. دار الفنون الثقافية، بغداد.
- ٢- Moscati, S. 1958. Histoire Des Peuples Semitiques. - Paris, P. 32-330
- ٣- التكريتي، هيلان حسادي ١٩٨٧. الأمن الغذائي وعلاقته بالانتاج والتصنيع وتجارة الغذاء. مجلة الأجيال، العدد ١٢.
- ٤- Downor, V. H. W. 1921. Dates And Date Cultivation Of The Iraq. Cambridge P. 83.
- ٥- الحليق، عماد محمد ذياب ١٩٨٩. نخلة التمر في التراث العربي. مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد.
- ٦- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية ٢١.
- ٧- نفس المصدر، الآية ٢٢.

- ٨- نفس المصدر، الآية ٤٩.
- ٩- نفس المصدر، الآيات ٤٧-٤٩.
- ١٠- ابن كثير ١٩٣٣. البداية والنهاية. ج ١-٢، ص ٢١٠.
- ١١- ابن كثير ١٩٧٨. السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد. دار الفكر، بيروت.
- ١٢- ابن قيم الجوزية ١٩٨٥. الطب النبوي، تحقيق وتصحيح عبد الحفي عبد الحفي. دار العلوم الحديثة، بيروت، ص ٢٢١.
- ١٣- السباعي، مصطفى ١٩٥٩. الزراعة في مصر الإسلامية. وزارة الزراعة، القاهرة، ص ٤٦.
- ١٤- ابن قيم الجوزية ص ٧٦-٧٧.
- ١٥- ابو حاتم السجستاني ١٩٨٥. كتاب النخلة، تحقيق حاتم الضامن. مجلة المورد، مجلد ١٤ عدد ٣ ص ١٦٧.

